زوجة زكريا

قصص النساء في القرآن

[11] زوجة زكريا

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى:{قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ} [آل عمران: ٤٠]، وابنها يحيى، الذي ورد ذكره في قوله تعالى:{يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ} [مريم: ١٢].

***

موجز القصة:

زوجة نبي الله زكريا على نبينا وعليه السلام زوجة صالحة نص القرآن على صلاحها، هي امرأة عاقر، وزوجها كبير في السن، ومع ذلك لم ييأسا بل عَلما أن الله على كل شيء قدير، وأنه سبحانه إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، فألحت وزوجها بالدعاء لله تعالى.

هي امرأة مباركة وأي بركة، فهي زوجة نبي، وأم نبي، بل قيل: وبنت نبي، وخالة نبي، إنها أم يحيى نبي الله عليه السلام، وزوجة نبي الله زكريا عليه السلام.

قال القتبي: امرأة زكريا هي إيشاع بنت عمران، وقيل: أشياع،وعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة؛ فتكون أيضاً خالة نبي، وقيل: خالة مريم أم عيسى عليهما السلام.

وقد ورد الحديث عنها في أربعة مواضع من القرآن الكريم، في سورة آل عمران بعد ذكر قصة ولادة مريم وكفالة زكريا لها ورزق الله لها بغير حساب:{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ

يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾} [آل عمران: ٣٨ - ٤٠].

وفي سورة مريم في قوله تعالى:{ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾} [مريم: ٥]، وفي قوله: { قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾} [مريم: ٨].

وفي سورة الأنبياء في قوله تعالى:{وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾} [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

نقول وبالله تعالى التوفيق والسداد: لقد كان نبي الله زكريا فرداً لم يولد له ولد، وكان كفيلاً لمريم عليها السلام، وذلك بعد أن ولدتها أمها وقد نذرت ما في بطنها لله عز وجل:{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: ٣٧]؛ فلما رأى زكريا عليه السلام صلاح مريم وعبادتها وانقطاعها في محرابها وهي الفتاة الصغيرة التي لم تتجاوز الستة عشر سنة، تاقت نفسه للذرية الصالحة، فصلاح الأولاد أعظم كنز للإنسان في حياته، وبعد مماته، أليسوا عمراً ثان لأبيهم، كما روى مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ☺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:**"إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ -.**

فأخذ زكريا عليه السلام يدعو ربه{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾} [آل عمران: ٣٨]، مع أنه عليه السلام كان كبيرًا في السن، وكانت امرأته عاقرًا، ولكنهما أيقنا يقينًا تامًّا وهما يريان أصناف الأرزاق عند مريم حتى أن فاكهة الصيف تأتيها بالشتاء، وفاكهة الشتاء بالصيف، يرى زكريا عليه السلام ذلك وهو الذي تكفل بإطعامها، فمن الذي يأتي لها بهذا؟! فأيقن أن الله تعالى على كل شي قدير، وأنه لا يرد دعوة الداع إذا دعاه، وأن الله تعالى إذا قال للشيء كن فيكون.

وفعلاً جاءه الفرج من الله القريب سبحانه كما في قوله:{ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾} [آل عمران: ٣٩]، وكما في قوله: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾} [مريم: ٧].

ومع ذلك تعجب زكريا عليه السلام فزوجته كانت عاقراً كما قال الله عنه:{ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾} [آل عمران: ٤٠ - ٤١]، وكما في قوله:{ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾} [مريم: ٨ - ١٠]؛ فكانت امرأته عاقرًا، فأنعم الله تعالى عليها بالحمل، استجابة لدعائهما كما في قوله:{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ

ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ } [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

أيهـا المؤمنــون الموحــدون: أتـدرون لمـاذا استجاب الله دعاءهمـا، أتعلمون لماذا أصلح الله هذه المرأة وجعلها مباركة، ورزقها الذرية رغم عقمها، وكبر سن زوجها؟، لقد أُجيب على هذا في آخر الآية: {إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾} [الأنبياء: ٩٠]، ثلاثة أسباب للصلاح وللعطاء ولعلاج العقم: المسارعة بالخيرات، والدعاء رغبة ورهبة، وخشوع قلوبهم لله تعالى، فحملت إيشاع بنت عمران زوجة زكريا عليه السلام، فيا من ابتلى بعدم الإنجاب، لا تكن في هم وضيق، فإن الله تعالى عليم خبير، فثق بعلمه وسلم الأمر له، وخذوا بالأسباب من مراجعات واستشارات، ولكن قبل طرق أبواب الأطباء، عليكم بقرع أبواب السماء، افعلوا كما فعل زكريا وزوجه، علما أن الله وحده هو المعطي والمانع، فانطَرَحَا يصليان بين يديه،وسارعا بفعل الخيرات إليه، وسألاه بذل وخشوع وانكسار،{إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾} [الأنبياء: ٩٠]؛ فقل كما قال زكريا:{رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ} [الأنبياء: ٨٩]، وسلي أيتها المؤمنة ربك كما سأل زكريا{رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً} [آل عمران: ٣٨].

فهيا أيها الزوجان احذرا اليأس وألحا على الله بالدعاء، وأعلنا الرضا واليقين، وأنتما ترددان: يا عالماً بكل نجوى، ويا سامعاً لكل شكوى، وثقا بقوله:{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ } [البقرة:

١٨٦]، فألحا فهو لدعوة المضطر مجيب، فإن لم يحصل لك بعد ذلك ما تريد، فثق يقيناً أنه أخره أو صرفه لخير أراده لك، فهو علام الغيوب، وأنتم للمستقبل تجهلون ولا تعلمون، فأحسنوا التوكل عليه، وثقوا بأنه لا يقضي للعبد قضاء إلا وله فيه خير، ولكنكم قوم تستعجلون، هذه حقيقة التوحيد ومعناه، بأن الأمر له وحده سبحانه، {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾} [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

فتأمل! جعل الله عز وجل الناس أربعة أقسام:

الأول: منهم من يعطيه البنات.

الثاني: ومنهم من يعطيه البنين.

الثالث: ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا.

الرابع: ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له.

وقال بعض أهل العلم - رحمهم الله تعالى -: هذا أيضاً في الأنبياء عليهم السلام{يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا} [الشورى: ٤٩]؛ يعني: لوطا عليه السلام لم يولد له ذكر، إنما ولد له ابنتان.{وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ} [الشورى: ٤٩]؛ يعني: إبراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى.{أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا} [الشورى: ٥٠]؛ يعني: محمدًا صلى الله عليه وسلم ولد له بنون وبنات. {وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا} [الشورى: ٥٠]؛ يعني: يحيى وعيسى عليهما السلام لم يولد لهما.

وهذا على وجه التمثيل، وإلا فالآية عامة في حق كافة الناس،

{إِنَّهُۥ عَلِيمٌ} [الشورى: ٥٠]؛ أي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام،{قَدِيرٌ}؛ أي: على من يشاء، من تفاوت الناس في ذلك.

وكل شيء بيد الله تعالى فهو مغير الأحوال، وما بين غمضة عين وانتباهها يغير الله من حال إلى حال، فلا تحزن أخي، ولا تحزني أنتِ إن حصل تأخر في الذرية، فهذا ابتلاء، ودفعه يكون بالتوبة وكثرة الاستغفار والمسارعة في الخيرات والعمل الصالح، مع خشوع القلب وتسليمه لله وقضائه، والصبر على ذلك.

قال الإمام الآلوسي - رحمه الله تعالى -: الله تعالى يقسم النعمة والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغة لا كما شاء الإنسان بهواه، وفيه إشارة إلى أن إذاقة الرحمة ليست للفرح والبطر بل للشكر لموليها، وإصابة المحنة ليست للكفران والجزع بل للرجوع إلى مبليها؛ فالله تعالى له التصرّف فيهما بما يريد، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، لذلك نقول بعد كل صلاة: اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد. فهل نعقل ما نردد ونقول؟

وفي قوله:{يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا} [الشورى: ٤٩]؛ قيل: من يُمنِ المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، لأن الله تعالى بدأ هنا بالإناث، وعن بعض العرب: أن امرأته وضعت أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة، فقالت:

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا ::: يَظَلّ فِي الْبَيْتِ الّذِي يَلِينَا
غَضْبَانُ أَنْ لاَ نَلِدَ الْبَنِينَا ::: تاللهِ ما ذلك في أيدينا
لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَاشِينَا ::: وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا
نحن كالأرض للزارعينا ::: و... ننبت ما قد زرعوه فينا

وفى الحديث الذي رواه البخاري:"مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَـذِهِ الْبَنَـاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ -؛ فما أروع البناتِ بعد هذا الحديث، والله تعالى صاحب القدرة التامة، والإرادة النافذة، ولكن أكثر الناس لا يعقلون. ثم تدبروا قوله:{إِنَّهُمْ كَانُواْ} [الأنبياء: ٩٠]؛ لم يقل: إنه كان، يريد نبيَّ الله زكريا وامرأته، وهنا تظهر أهمية التعاون على الحق والخير، وتظهر أهمية اختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة، لأنهما سيكونان رفيقا العمر، وسيكونان جليسا بعضهما مدى الحياة، فإذا كانا صالحين سعد كل منهما وأسعد الآخر، أما إن كانا غير ذلك شقي كل منهما وأشقى معه الآخر.

فهذا نبي الله زكريا عليه وعلى نبينا السلام يأخذ بيد امرأته ويشجعها لكي:{يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠]؛ فمن صحب الصالحين ورافقهم سعد بهم، فكيف إذا كانت هذه الصحبة زواجاً وشراكة حياة بأكملها، والزوجة الصالحة من حسنة الدنيا لأن الله تعالى ذكر ذلك في القصة على سبيل الامتنان على زكريا عليه السلام مما وهبه الله له في الدنيا، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم :"**الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة** -.

ما يؤخذ من القصة:

موافقة إشياع بنت عمران لزوجها زكريا وطاعتها له على الخير، وربما أن هذا التعاون بينهما سبب لاستجابة دعوتهما في طلب الذرية والولد، وأيضاً تدبر قوله:{فِى ٱلْخَيْرَٰتِ}، ولم يقل: " إلى الخيرات " مما يؤكد أن الخير أصل فيهم، ومع ذلك تميزوا بمسارعتهم ومسابقتهم إليه، فيتضح هنا أهمية وأثر المسارعة في

الخيرات، فإذا فُتح لك بابُ خيرٍ فسارع ولا تتردد، بل أسرع وأشرك معك من تحب من أهلك وإخوانك، فربما أُغلق هذا الباب دونك بسبب تمنعك وترددك في سرعة ولوجه، فاحذر نفسك الضعيفة وحيل الشيطان ولا تتردد، وتأمل قول الحق: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ } [الأنفال: ٢٤]، فهيا أقبل قبل أن يحول الله بينك وبين قلبك، فتُمنع خيراً كثيراً كان قد فتح لك، فإن استطعت فلا تترك بابًا من أبواب الخير إلا ولك فيه سهم وإن قل، ثم بعدها ادع الله بما شئت خوفاً وطمعاً، وكن مخلصاً خاشعًا، وسترى عجباً،{وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١} [الواقعة: ١٠ - ١١].

تمت القصة بفضل الله تعالى

* * *